دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	المدينة الكولونيالية بشمال المغرب بين النسيج المغربي الأصيل والتشييدات الإسبانية اللاحقة
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة سيدي محمد بن عبدالله - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	لوكيلي، منتصر
المجلد/العدد:	عدد خاص
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الصفحات:	119 - 133
رقم MD:	512952
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	التاريخ، شمال المغرب ، التراث العمراني، العمارة المغربية، العمارة الاسبانية، الآثار
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/512952

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

المدينة الكولونيالية بشمال المغرب بين النسيج المغربي الأصيل والتشييدات الإسبانية اللاحقة

منتصر لوكيلي

مفتشية المباني التاريخية قاس

مقدمة

يمثل التراث العمراني الإسباني بشمال المغرب خلال النصف الأول من القرن العشرين مادة دسمة للدراسة والتحليل، تتيح فهم تاريخ البلدين الجارين في إحدى أهم المراحل التاريخية لهما وأشدها تعقيدا، ودراستنا تحمل في طياتها هدفا مزدوجا، فمن جهة تسلط الضوء على التراث العمراني الإسلامي بالمدن الشمالية في المرحلة السابقة على الوجود الإسباني، ثم تحلل الخصوصية التاريخية للفترة التي عرفت فرض الحماية الإسبانية على الشمال المغربي.

وبالتالي فنحن أمام ثنائية المدينة العربية الإسلامية المتمثلة في طنجة، تطوان، القصر الكبير، شفشاون، العرائش، أصيلا، والمدينة الإسبانية التي تعتبر المولود الشرعي لمؤسسة الجيش (الناظور، الحسيمة،..). وهكذا سنعرض في دراستنا هذه لنشأة الشبكة الحضرية بالمغرب عبر التاريخ خلال العصور القديمة والوسطى وصولا إلى غداة الحماية، ثم سنتناول رؤية الإدارة الاستعمارية الإسبانية للتخطيط الحضري سواء خلال مرحلة ما بعد التهدئة وضرب المقاومة أو خلال مرحلة الحرب الأهلية دون أن نغفل الحضور القوي للثنائية التي أشرنا إليها سلفا.

١- الشبكة الحضرية خلال العصور القديمة

كانت منطقة الريف عبر التاريخ نقطة تماس بين نمطين من العيش: نمط الفلاحين المستقرين على الساحل المتوسطي ونمط الرعاة الرحل على سهول وهضاب الجنوب. وهي منطقة مفتوحة جغرافيا على الشرق، ولكنها صعبة المسالك نحو الجنوب بينما يحدها البحر شمالا وغربا، وتضم عددا من العشائر والإثنيات التي تتكلم مختلف الألسن، وقد شكل هذا الإطار الجغرافي والإنساني مجالا لتطوير شبكة حضرية وفق المتطلبات التي طرحتها الهجرات البشرية المختلفة.

وفي العصور القديمة، تحتفظ الأدبيات باسم هيكاتيوس دي ميلي كأول من تحدث عن أرض المغرب الحالي [1]، إذ أورد أربع مدن في المغرب من بينها ميتاكونيوم. أما استاربون فقد ذهب إلى أن ميتاكونيوم كانت رأسا بارزا ربما يقع في منطقة رأس الماء أو محيط منطقة مليلة، كما أننا نجد ميتاكونيوم موثقة في عدد من المصادر الأخرى مثل إرطوسطين.

وفي القرن الثاني للميلاد، يورد صاحب مسالك أنطونان النقاط التي تتصل بينها بحرا مثل آد سيبتيم فراطريس وآد آبيليم وآد أكيلام مينوريم وآد أكيلام مايوريم وآد سيكس إنسولاس وبرومونتوريوم روسادير وروسادير كولونيا. وفي فترة متأخرة، يشير جغرافي رافينا المجهول إلى وجود مدينة تحمل اسم بيريتينا [2].

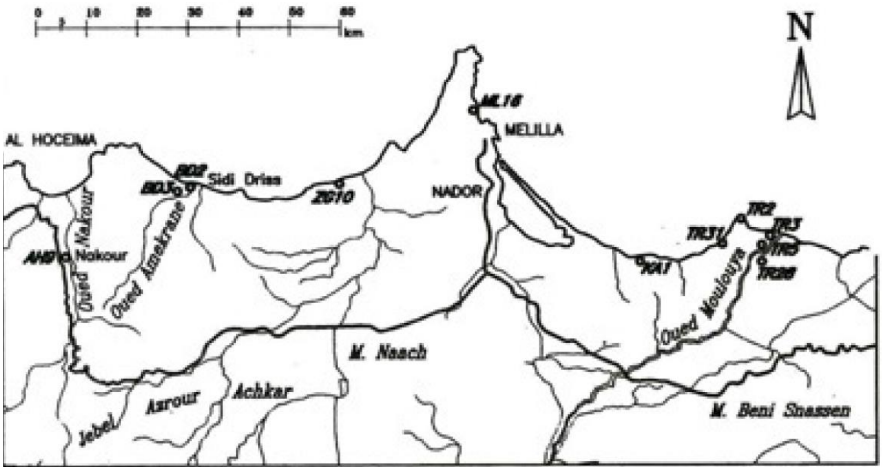

المواقع التي وجدت فيها قطع أثرية قديمة قبل الإسلام

لقد حاول عدة مؤرخين وجغرافيين تحديد مواقع المدائن في المغرب المتوسطي حسب المسافات. دون أن تسعفهم الأركيولوجيا في الحسم النهائي. فأول منشأة يتم التوافق عليها هي مليلة–روسادير التي تعني "الرأس المهيب" حيث ضربت العملة، والتي حملت رسما لنحلة بن سنبلتين وعنقود عنب. مما يؤكد لدينا وجود شواهد مادية عن مصادر اقتصادية كفيلة بالدفع بعجلة العمران وتشجيعه وهي زراعة القمح، وزراعة دوالي العنب. كما أن المؤرخين توافقوا أو كادوا حول مُسلمة أن الرومان لم يعمروا منطقة الريف. وهو ما يمكن القبول به في السلسلة الجبلية الريفية، ولكن الساحل يطرح أسئلة أكثر تعقيدا. يمكن أن نفترض أن الاحتلال العسكري الروماني كان قصيرا في الزمن، تم بعده انسحاب من المنطقة. أما الموقع القديم الذي دعا المؤرخين إلى تغيير رؤيتهم حول تاريخ المنطقة وتطور الاستقرار بها، ودعا إلى تعميق البحث الأركيولوجي فهو موقع سيدي ادريس –آكروس، ويقع على الساحل المتوسطي عند مصب وادي أغزار امقران بجماعة تمسمان غرب

(1) GOZALBES E., 1980: "Atlas Arqueológico del Rif", Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán, 21-22, p. 26.

(٢) المرجع نفسه.

الناظور، وقد تم رصد بقايا سابقة للعصر الروماني في دوار آيت الطاير –على بعد عشرات الأمتار من سيدي ادريس– وكذلك تحت أنقاض حصن إسباني بني في العشرينيات من القرن الماضي وهو الآن خرب بالكامل، ويرى أحمد سراج أن الموقع يستجيب لآكروس المذكور في الأدبيات التاريخية القديمة [٣].

٢– بعد الفتح الإسلامي

عرفت الشبكة الحضرية ازدهارا ملحوظا بعد الفتح الإسلامي، واتفق العديد من المؤرخين على أن أولى بواكير العمران الحضري في المغرب الإسلامي ظهرت في الساحل المتوسطي وعاصمته مدينة نكور، إذ تعتبر إمارة النكور أول إمارة أسست في المغرب بعد اعتناق الإسلام، وقد خربت بشكل تام بعد دخول جيوش يوسف بن تاشفين سنة 472 هـ فلم تعمر بعدها ولو أنها عرفت نكبات قبل ذلك، ففي حملة موسى بن أبي العافية خربت نكور ولم تعد سوى "بلاقع تسفي فيها الرياح وتعوي الذئاب" على حد تعبير البكري [٤]. وغير بعيد عن نكور أسست مدينة باديس خلال القرن الثامن الميلادي، ولعبت خلال القرن العاشر دورا هاما كإحدى موانئ مملكة بني صالح (وعاصمتها نكور)، وقد صارت مركزا حضريا هاما قبل ظهور الدعوة الموحدية، وقام يعقوب المنصور بتحصينها بجدار إحاطة سنة 1204 كما تورد المصادر التاريخية. ومع بني مرين عرفت بادس ازدهارا تجاريا تجلى في معاملاتها مع العالم المسيحي، وانعكس على ساكنتها فتوسعت المدينة، وضمت أسواقا وأحياء سكنية، ومسجدا جامعا، ومصلى، وقصبة، وعلى ارتفاع 350 مترا، ينتصب مبنى حسن التحصن، يحتمل بقوة أن يكون رابطة تعود للعهد الموحدي توفر رؤية شاملة لمحيط بادس برا وبحرا.

ومن بين مدائن الشبكة الحضرية المذكورة حاضرة المزمة التي ولدت في القرن العاشر كميناء لإمارة نكور. وبما أن نكور توجد بالداخل فإن ميناءها الذي ضمن لها التواصل مع البحر لم يكن إلا "المزمة" ولهذا يذكرها البكري في القرن الحادي عشر كميناء لنكور، ورغم الخراب النهائي لعاصمة الإمارة فقد أخذت وضعا خاصا، وورد ذكرها في القرن الثاني عشر لدى الإدريسي والأنصاري. وعرفت تتابع الاجتياحين المرابطي والموحدي، دون أن تفقد مكانتها كإحدى أهم مدائن الجهة. واستمر بنو مرين هم الآخرون في تكريسها كمركز عسكري كبير. وخلال القرن السادس عشر فقدت المزمة

([3]) Siraj (Ahmed), De Ighzar Amekrane à Akros : réflexions rétrospectives sur les sources historiques du Rif, in : Rif, Les traces de l'Histoire, Actes du colloque Patrimoine Culturel du Rif, Quelle Muséographie ? Edition C.N.D.H, 2011, p.67.

(٤) أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، المجلد الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣، ص ٢٨١.

جزءا كبيرا من أهميتها، في غمرة أزمة الريف آنذاك. واختفت نهائيا سنة 1687، عندما هوجمت من طرف الإسبان الذين فضلوا المقام بالجزيرة الكبرى للحسيمة.

تازوضا

في القرن الحادي عشر للميلاد، سكنت المدينة قبيلة "بني أورتدي"، وكانت تابعة لمملكة نكور، وتذكر بعض المصادر أن قلعة جارة "..وهي حصن منيع في أعلى جبل لا متناول له ولا مطمع فيه.."[٥]. وقد عرفت تازوضة حيوية في القرن الرابع عشر الميلادي. ويعتقد حسن الفيكيكي أن المرينيين وجدوا القلعة على رسمها وحالتها القديمة، وكان عليهم فقط أن يبادروا إلى تجديد المباني البارزة في الداخل وتشييد الأسوار الخارجية [٦]. خلال فترة الحماية الإسبانية تم تشييد برج مراقبة خلال العشرينيات من القرن الماضي، يتميز بتصميمه المستدير، وتمكينه من مراقبة المنطقة، وهو الآن خرب وفي حالة تصدع وانهيار، وتجدر الإشارة إلى أنه بني بدوره على أنقاض الآثار المرينية.

غساسة

نعلم من خلال البكري أن غساسة كانت تابعة لمملكة نكور. وفي القرن الرابع عشر يتحدث عنها ابن خلدون والعمري كمدينة، هذا الأخير يشير في "المسالك" إلى أنها كانت تسمى "الكدية البيضاء". وبميناء غساسة نزل أبو عبد الله، آخر ملوك بني نصر، بعد مغادرته غرناطة إثر سقوطها سنة 1492. وبعد سنوات من سقوط مدينة مليلة، تحولت أنظار الإسبان إلى غساسة فتمكنوا من احتلالها سنة 1506، وتم تحريرها بعد ذلك من طرف المقاومة المتمركزة في تازوضة سنة 1532. ورغم أنها كانت موضوع حفائر أركيولوجية خلال الأربعينيات توجت بنشر كتاب حول تاريخها، إلا أننا لا نتوفر على تصاميم واضحة لمعالم المدينة. كل ما تبقى هو جدار إحاطة مختلط تم بناؤه بالطابية ويبلغ طوله حواي 200 متر وعرضه يتراوح بين 60م و140م[٧]، ومطعم بأبراج مستطيلة.

(٥) الفيكيكي، حسن. مادة "تازوطا"، معلمة المغرب، ٦/٢٠٤٠.

(٦) الفيكيكي، حسن. المرجع نفسه.

[7] LAOUKILI, Montaser, El yacimiento arqueologico de Ghassassa, notas de Historia y de Arqueologia, in : Akros, Revista del Museo de Melilla, n° 4, 2005, p. . 115

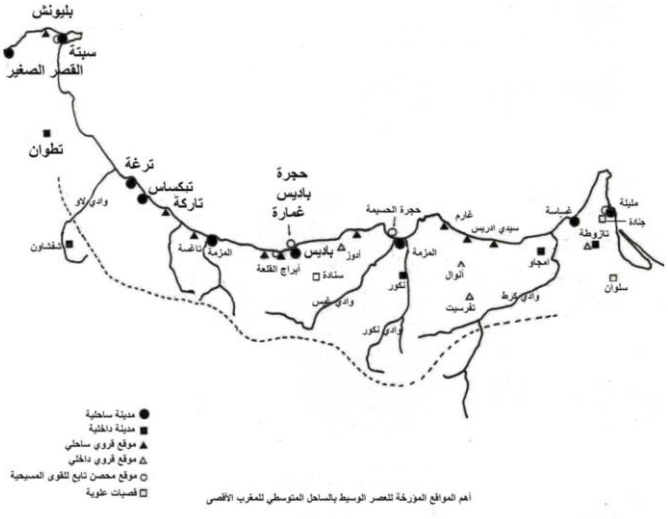

بتصرف عن: باتريس كريسيي، استكشاف أركيولوجي في الريف، رسالة لنيل دبلوم السلك الثالث في جامعة باريس، السوربون. 1981، ص: 419.

من الممكن أن نستنتج أن الشبكة الحضرية لمنطقة شمال المغرب ارتبطت إلى حد كبير بالبحر، وانتعش اقتصادها مع نشاط الموانئ، إلا أن الزحف المسيحي الإيبيري والقضاء المبرم على الحضور العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، واحتلال الموانئ الساحلية المغربية تباعا (سبتة 1415، مليلة 1498، غساسة 1506...) جعل الساكنة تتراجع عن تعمير السواحل لتحتمي بالداخل، وتغير معها نمط الحياة المدني ليأخذ شكل تجمعات قروية محدودة، ومع وصول الجيوش الإسبانية غداة الحماية، كانت المدن الحضرية منحصرة في شبه الجزيرة الطنجية وهي طنجة وتطوان وشفشاون والقصر الكبير والعرائش وأصيلا، أما المناطق الشرقية والوسطى فلم تعرف وجود النمط الحضري المغربي المألوف، وبالتالي فإن الحماية الإسبانية كانت أمام خريطة جغرافية وحضرية غير متوازنة من الناحية المجالية والديموغرافية.

٣– رؤية الإدارة الاستعمارية الإسبانية للتخطيط الحضري

عرف المغرب في أوائل القرن العشرين ما سمي بتطبيق الحماية على أراضيه تبعا للأزمات السياسية والاقتصادية الخانقة المتعاقبة عليه، وهكذا صار الشمال المغربي من حدود نهر ملوية إلى المحيط الأطلسي تابعا لإدارة الحماية الإسبانية وعاصمتها مدينة تطوان، ويرد ذكر المنطقة في الأدبيات التاريخية الإسبانية باسم المغرب الخليفي Marruecos jalifano ويضم منطقتي الريف وجبالة.

لم يكن الهاجس الذي دفع القوات الاستعمارية آنذاك هو عصرنة النظام المغربي أو تحديثه بل كان الهاجس الحقيقي هو التوسع الاستعماري، ومع تمكن ثورة الريف في عشرينيات القرن العشرين من إعلان الإفلاس الرسمي للعسكرية الإسبانية

المتأرجح بين آثار معركة كوبا ونتائج حرب تطوان، عمدت الإدارة الاستعمارية الإسبانية إلى تغيير نهجها، لا سيما على مستوى العمارة العسكرية. حيث قام مهندسو الجيش بوضع أولى المخططات والتصاميم منطلقين من توجيهات إيديولوجيا الوجود الإسباني المعتمد على الجغرافيا، دون اعتماد أي منطق للمصالح الداخلية وقطعت أوصال الطرق التقليدية الرابطة بن شمال المغرب وجنوبه المعتمدة في أغلبها على الأودية، بينما تم ربط مناطق جبلية ببعضها البعض من الشرق إلى الغرب عبر سلسلة جبال الريف لأسباب عسكرية محضة تكمن في تسهيل انتشار القوات الإسبانية، وإحكام سيطرتها الميدانية على مجموع التراب.

وفي هذا السياق، يرى المؤرخ الإسباني أنطونيو برافو نييتو أن الوجود الإسباني اعتمد حضورا جغرافيا لا عقلانيا، وهو ما أفرز منطقا مبنيا على تصورين مختلفين: الإدارة المدنية التي مثلتها المندوبية الخليفية مستقرة في تطوان، والإدارة العسكرية التي اعتمدت بالأساس على المهندسين العسكريين، وقد استمرت ثنائية الإدارتين والتصورين حتى سنة 1927 [٨]، أي الإنهاء العسكري للمقاومة الريفية، لتقوم الإدارة المدنية ببسط سلطاتها على شبكة الطرق ومباشرة ورشات تهم المجالات الحضرية كمشروع تموين الماء الشروب في تطوان والعرائش، الذي ترتب عنه استغلال وادي مارتيل ووادي لاو وإنشاء خزانات ضخمة. ونظرا لكون مناطق الريف الأوسط والشرقي كانت مأهولة بساكنة قروية فقد تأخر ظهور الأنوية الحضرية بها.

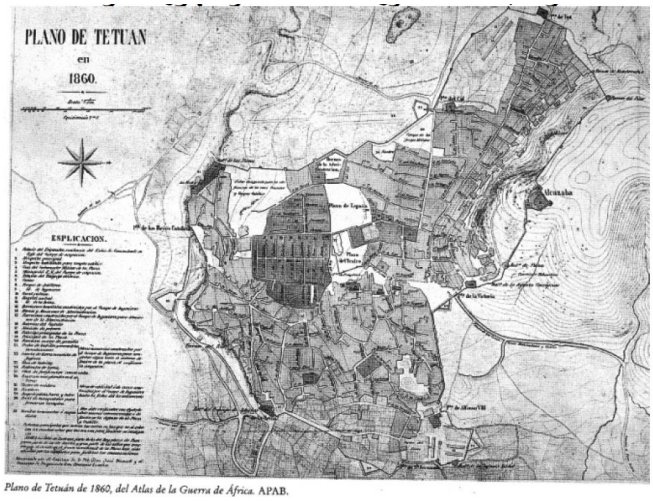

Plano de Tetuán de 1860, del Atlas de la Guerra de África. APAB.

تصميم مدينة تطوان بعد سنة 1860 – الأرشيف الخاص للمؤرخ أنطونيو برافو–

(8) Antonio Bravo NIETO, Arquitectura y urbanismo espanol en el norte de Marruecos, Seveilla, Junta de Andalucia, 2000, p : 67.

4 – الشبكة الحضرية في شبه الجزيرة الطنجية

أثارت المدينة المغربية الأصيلة اهتمام السلطات الاستعمارية الإسبانية، فاعتبرتها رواسب هامة لثقافة يجب الحفاظ عليها وصونها، وكلفت الأكاديميات الخاصة بالتاريخ والفنون الجميلة أساتذة أقاموا في مدينة تطوان لدراسة المدن العتيقة المذكورة وحمايتها. ففي سنة 1914 كانت أولى مهمات مدير قسم الهندسة لدى الإدارة الخليفية ترميم القصر الخليفي بتطوان والذي يعود للقرن الثامن عشر وكذا أسوار المدينة. ومع أولى التخطيطات لأحياء تطوان والعرائش ظهرت نصوص قانونية ووثائق تحث على احترام المدينة العتيقة وتمنع أي بناء ذي طابع أوروبي بداخلها، وهي المهمة التي أسندت إلى لجان الآثار والمعالم التاريخية. ويعود أول قانون اهتم بحماية التراث الثقافي في شمال المغرب إلى سنة 1916، ويتعلق الأمر بمرسوم ملكي مؤرخ بـ 30 أبريل 1916، وقد تم بموجبه إنشاء المجلس الأعلى للدراسات التاريخية والجغرافية بالمغرب، وهو ملحق مباشرة بوزارة الشؤون الخارجية الإسبانية. وهذا المرسوم مستوحى بشكل مباشر من القانون الخاص بالحفريات الأركيولوجية في إسبانيا سنة 1911. وفي سنة 1919، وتبعا لطلب من وزير الشؤون الخارجية موجه إلى الأكاديمية الملكية للتاريخ بإعداد تقرير حول إنشاء مجلس أعلى ومجالس محلية للمباني التاريخية والفنية، فأصدرت الإدارة الخليفية ظهيرا أنشأت بموجبه هذه المؤسسات، وقد تكون المجلس من أمين المندوبية السامية بالمغرب، ومندوب الشؤون الأهلية. بينما تكونت اللجان المحلية من المراقب المحلي كرئيس ومهندس معماري أو مدني وفقيه مغربي، وهي المؤسسة التي أشرفت على حفائر ليكسوس وتمودا. وقد كانت هذه المؤسسات تهتم بالنسيج العتيق للمدن العتيقة.

صورة لفناء منزل تطواني بالمدينة العتيقة

ربما كان هذا الاهتمام بالتراث المغربي وملاءمته مع النظرة الأوروبية القادمة من الشمال عائدا لنوسطالجيا دفينة تعتبر فيه إسبانيا الفضاء المغربي ترجمة جغرافية لتراثها الأندلسي، فمدن طنجة والشاون وتطوان تمثل شواهد عن حضارة أندلسية

كانت مزدهرة في زمن عانت فيه أوروبا من القرون الوسطى المظلمة، وربما كان الأمر عائدا كذلك لأسباب تتعلق بالوضعية العقارية للأرض، بيد أن النتيجة كانت تركيبة عمرانية لمدينة مزدوجة، فبجانب المدينة العتيقة المحاطة بالأسوار تم تصميم فضاء متسع يضمن التواصل بن الواقعين المعمارين المختلفين، وفي الآن الذي كانت الأسوار تصلح فيه لمرور الدوريات الدفاعية وتلعب فيه الأبواب دور الممر الضروري، والفضاء المتسع هو الساحة التي كان يُطلق عليها اسم ساحة إسبانيا. ففي تطوان لعبت ساحة الفدان (كما كانت تُسمى) دور معبر بين المدينة العتيقة والمدينة الإسبانية دون أي نشاز يخدش البصر، كما أنها كانت تُمثل دور السلطة حيث كانت تمتد أمام القصر الخليفي والمندوبية السامية والمؤسسات الرسمية، والواقع أن هذه الساحة تذكرنا بالساحة اليونانية الآكورا أو الساحة الرومانية الفوروم لما تتوفر عليه من خصائص الالتقاء والامتداد.

وقد عرفت مدينة العرائش بدورها الفضاء المتسع المذكور، حيث تم تشييد ساحة بيضوية الشكل تمتد تحت أقدام جدار الإحاطة لتعانق الحي الإسباني الإنسانشي. ولتصير قلب المدينة النابض ومركز الثقل العمراني والسياسي للمدينة، فحولها تنتصب المباني الرسمية [٩]. أما في مدينة القصر الكبير، فقد نهجت السلطات الإسبانية نهجا مخالفا حيث هدمت الأسوار العتيقة وصارت المباني الإسبانية ملتصقة بدور المدينة القديمة مما ولد أشكالا مختلفة ومتنوعة معماريا وعمرانيا. وتميزت مدينة الشاون بكونها المدينة التي تبدي أكبر انفصام بين المدينة الحديثة والمدينة العتيقة وربما يعود ذلك إلى طبوغرافيا الموقع من جهة وقلة الإسبانيين الذين استوطنوا من جهة أخرى. وفي جميع الحالات فإن التصور العام كان يهدف إلى خلق منظور متسع غايته توزيع الأزقة والشوارع بشكل يجعل للبنايات طابعا خاصا تنفرد به.

(9) BRAVO NIETO, Antonio. "Tetuán y Larache, dos modelos de ensanche en el norte de Marruecos". En: La formación de una ciudad: Apuntes sobre el urbanismo histórico de Ceuta. VI Jornadas de historia de Ceuta. Ceuta: Instituto de Estudios Ceutíes, 2006; p. 83.

تصميم التوسعة الإسبانية لمدينة القصر الكبير، ونلاحظ انعدام فضاء المتسع للربط بن النسيج العتيق والتدخل الإسباني

تصميم مدينة العرائش سنة 1927، ويبدو مدى الاتصال بين المركز الاسباني والنسيج الأصيل

كذلك فقد عرف التعمير الإسباني ظهور نماذج متميزة، ومن بينها نموذج الحي الإسباني ذي الخطوط المتعامدة والذي يبدو مثالا ناجحا على نمو المدينة وتطورها، لا سيما وأن ظهورها بدأ سنة 1914 موازاة مع انطلاق التكوين العلمي للمهندسين المعماريين، مما جعل طرزا أخرى تضاف وأهمها طراز المدينة الحديقة والتي اعتمدها المهندسون لكسر الروتين الذي تفرضه المباني الإسمنتية ذات الشكل الموحد والرتيب [١٠]، فكانوا يبحثون عن فضاءات خضراء كالفدان أو ممر النخيل بتطوان أو شارع الملكة فيكتوريا أوخينيا في العرائش، بيد أن هذه النماذج لم تتمكن من أن توقف البناء العشوائي والذي تسببت فيه هجرة المعوزين من إسبانيين ومغاربة، وقد حاولت الإدارة الإسبانية الالتفاف على هذا المشكل خلال الأربعينيات من خلال بناء منشآت سكنية خاصة بموظفي ومستخدمي القطاع العام، ولم تتمكن هذه المحاولات من امتصاص الزحف الذي تسببت فيه الفاقة، فاستمر ظهور البناء العشوائي ولم يكتمل الحلم الرومانسي بتشكيل مدينة

(10) Principe, Albderto Darias, Algunos aspectos de la labor urbana de Espana en el norte de Marruecos, in : Arquitecturas y ciudades hispanicas de los siglos XIX y XX en torno al Mediterraneo Occidental, Centro Asociado de la ciudad de Melilla, p : 327

مكتملة الأنساق تنجح في الربط بين المدينة المغربية الأصيلة بما تختزنه من تاريخ والمدينة الأوروبية بما تمثله من تطلع نحو المستقبل، فقد كان ضغط الواقع الاجتماعي أكثر شدة. ولو أن المجهودات التي بذلها مختلف المهندسين أفرزت شبكة حضرية متنوعة ومختلفة عن ما كان من قبل، فانتشرت مناطق سكنية عمودية بمحاذاة أسوار تُذكر الرائي بالعصور الوسطى كما هو الشأن في تطوان وأصيلا والعرائش.

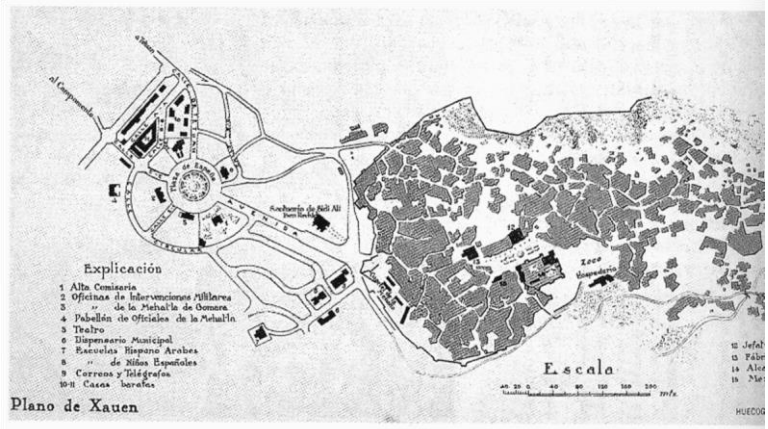

Plano de Xauen. 1940. APAB.

تصميم مدينة الشاون سنة 1940، ويبدو مدى الانفصام بن المركز الإسباني والنسيج الأصيل

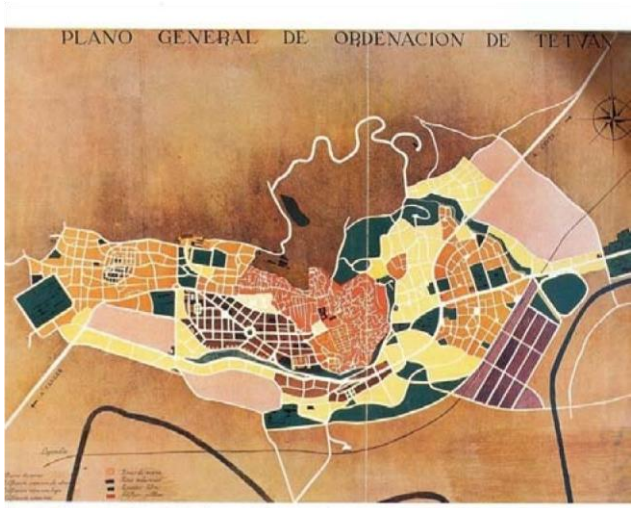

Plano general de ordenación de Tetuán, Pedro Mugaruza. Revista Nacional de Arquitectura. 1944.

مدينة تطوان سنة 1944، ويبدو مدى الارتباط بين المركز الإسباني والنسيج الأصيل

من خلال الفضاء المتسع الخاص بالساحة

وبالرغم مما أشرنا إليه آنفا من إعجاب الإدارة الإسبانية بالهندسة الأصيلة المغربية، إلا أن المهندسين القادمين من الجامعات الإسبانية آمنوا بتفوق هندستهم الجامعية على ما وجدوه أمامهم من أشكال وأساليب وزخارف ومواد بناء

وتقنيات، وكان من شأن هذا الاقتحام المفاجئ أن أسس لثورة رأسمالية تقوم على توفير المواد والتقنيات الجديدة وما يتبعها من أساليب.

ووجد القيمون على التعمير أنفسهم أمام مفارقة تقضي بتصور تشريعات مختلفة تأخذ بعين الاعتبار البناء في كل منطقة، ومحاولة إضفاء شرعية على هذا الأسلوب الهندسي المزدوج. وهكذا شيدت الإدارة الإسبانية سكنا خاصا بالجنود المسلمين سنة 1918 في تطوان حيث قام المهندس كابديكي بدراسة طريقة تنظيم الأسرة المسلمة أو عندما قام المهندس ألفونسو ديسييرا في الخمسينيات لخلق نماذج قريبة من الأسلوب المغربي في حي مولاي الحسن بتطوان.

٤–التشييدات الحضرية الإسبانية في الأوساط القروية، الريف الشرقي والريف الأوسط

يمكن اعتبار نهاية الحرب الأهلية الإسبانية الانطلاقة الحقيقية لسياسة البناء والتشييد، من خلال اعتماد مقاييس أكثر عقلانية وواقعية. وهكذا، كانت فيالق الجيش الإسباني المنتشرة في الشرق والوسط منذ سنة 1909 تعمل على خلق نوى مدن في المستقبل كنموذج مدينة الناظور في الريف الشرقي، وهي العملية التي استمرت سنة 1927 حيث شهد الريف الأوسط تشييد نوى الحسيمة وتاركيست، وذلك بتزامن مع تراجع الجيش الإسباني من بعض المواقع التي لم تعد لها نفس الأهمية، فبدأت المجموعات السكنية المتاخمة لها في الاختفاء كما هو الشأن بالنسبة لتلامغايت وتافرسيت[١١]. بينما ارتفع الحضور السكاني بتزايد النمو الديموغرافي إلى حد ابتلاع المنشآت العسكرية التي صار من الصعب استكشافها اليوم بسبب نزوح سكان القرى نحو المدن، ورحيل السكان الإسبانيين.

لم تكن الهندسة الأحادية الشكل هي ميزة العمارة التي بدأت تسود في الريف بعد سنة 1927 بل ارتبطت بتنوع الخيارات الشكلية. لهذا، فإن التطرق للتيارات المتعددة التي عرفتها المنطقة يظل مقترنا بحجم المهندسين المعماريين وبالتنوع الكبير في الفضاء والزمان، ويمكن تلخيص المدارس المعمارية المتعاقبة على الريف خلال هذه المرحلة كالتالي: الهندسة العسكرية، الاصطفائية (الاكليتية)، العقلانية، المعمار العربي الجديد، المعمار الريفي (طراز إيميليو بلانكو إيثاكا)، الطراز الفرانكوي.

٥–الريف الشرقي، مدينة الناظور: قطعة الشطرنج العائمة

(11) Antonio Bravo NIETO, Arquitectura y urbanismo español en el norte de Marruecos , Junta de Andalucía, Consejería de Obras Publicas, 2000, p: 112

تعكس عمارة الناظور تيارين هما الهندسة ذات التصور الأوروبي المحض من جهة والهندسة المتأثرة بالعمارة العربية الإسلامية، مع حضور بارز للانتقائية (الإكليتية) في بعض المباني، ويظل أهمها على الإطلاق مبنى كنيسة سانتياغو الأكبر للمهندس المعماري فرانسيسكو سيرا التي شيدت بن 1917 و1921 الواقعة في شارع مولاي الحسن بن المهدي والتي تظل إحدى المباني المعمارية الأكثر شموخا وتمثيلا للمدرسة الاصطفائية (الإكليتية)[١٢]. إلا أن فترة طلائعية وعقلانية طبعت مدينة الناظور الناشئة مع المهندس المعماري المتميز فرانسيسكو مارتينيث هيرنانث خلال الثلاثينيات حيث تولى مسؤولية الهندسة المعمارية بن 1929–1936، وهي الفترة التي يمكن أن نرصد فيها بدايات الأرت ديكو Art deco حيث انطلقت معه رؤية الجيل الجديد في الأعمال العقلانية والتصورات الأيروديناميةوالتجديدات في الحقل المعماري من استعمال مواد جديدة في البناء وتقنيات مختلفة عن التقنيات والمواد المألوفة، إنها تأثيرات الآلة وهيمنتها في مرحلة ما بين الحربين العالميتين. وخلفا لفرانسيسكو هيرنانث، تولى مانويل لاطوري باستور مسؤولية الرئاسة الجهوية للهندسة المعمارية بين 1938–1943 في توطئة العمارة من نوع خاص، ميزها أسلوب اختلطت فيه العمارة العربية الإسلامية بالأيروديناميةوالواقعية، خلال مرحلة سياسية دقيقة، كانت فيه إسبانيا تضمد جراحها بعد الحرب الأهلية. ومثلما فعل لاطوري في ضامة الناظور فعل خارجها، فهذا المهندس الذي ينتقد بشدة المباني المعمارية السابقة لسنة 1931، يرى أن العمارة الأندلسية تستطيع أن تكون نقطة انطلاق نحو جمالية جديدة بدون الحاجة إلى القيام بنسخ أساليب جاهزة، مستعملا مظاهرها التشكيلية في قالب بسيط. وقد نجح لاطوري في تقوية تصميم المخطط العمراني للناظور بإنجاز مبان أساسية ورائعة لا زالت إلى اليوم تشهد على ذكاء وتصور متميز للفضاء العمراني كما هو الشأن لبلدية الناظور (الإدارة العامة لجهة كرط) والنادي البحري الذين وضعا في نفس المحور (شارع إسبانيا "شارع محمد الخامس" حاليا)، وبدت الأربعينات حقبة ولدت معمارا أشبه ما يكون بأداة إيديولوجية تعكس النظام الفرانكاوي الفردي في أسلوب خاص بالمغرب يعتمد الباروك ذا البهرجة الكثيفة كالمثلثات في أعلى المباني. كما مثلت هذه المرحلة محاولة في التركيب جمعت لأول مرة بين

(12) BRAVO NIETO, Antonio, BELLVER GARRIDO, Juan Antonio, LAOUKILI, Montaser. "Nador (1909- 1956). Historia de una ciudad del Norte de Marruecos. / Nador (1909-1956). Histoire d'une ville du nord du Maroc". En: Aproximación a los edificios históricos y patrimoniales de Málaga, Tetuán, Nador, Tánger y Alhucemas / Un rapprochement entre les édifices historiques et patrimoniaux de Málaga, Tetouan, Nador, Tánger et Al Hoceima. cooperación internacional OMAU, Ayuntamiento de Málaga, UE, 2011; p. 231.

الأرت ديكو والعقلانية والتأثيرات الأيروديناميةوالعربية الإسلامية والأسلوب الفرانكوي في محاولة للبحث عن فضاء أرحب لضم المزيد من المميزات الثقافية الخارجية والداخلية.

صورة جوية لمدينة الناظور في عشرينيات القرن الماضي

5-1- الريف الأوسط، من فيلا سانخورخو إلى الحسيمة

تعود أصول مدينة الحسيمة إلى الإنزال العسكري الإسباني 8 شتنبر 1925، حيث شهدت المنطقة ولادة هذه المدينة بشكل عفوي مع استقرار الجيش، وهكذا ظهرت أولى بوادر الاستقرار المدني على ضوء التحركات العسكرية، وحمل أول تصميم توقيع المهندس العسكري خايمي كارصيا لارويل عام 1926 تحت اسم: "شاطئ كيمادو وحيه" تبعه تشييد ثكنات الفرسان والمشاة والمدفعية.

قام "أليخاندرو فيرانت" بتصميم توسعة فضاء "فيلا سانخورخو" سنة 1928 حيث ضمت 86 بناية وارتفع هذا الرقم إلى 160 بناية سنة 1934 بغض النظر عن منازل العمال والفقراء بالأحياء الفقيرة الناشئة، وبدورها عرفت المدينة الناشئة التيار الاصطفائي والإطارات المتكتلة التي توحي ببدايات الأرت ديكو بعاصمة الريف الأوسط. ونظرا لتألقها كعاصمة مرتقبة للريف الأوسط، فقد فكر المراقب المدني إدموندو سيكو ببناء حي "ريفي" يستجيب لمتطلبات الثقافة الريفية والدين الإسلامي، ورغم عدم استطاعة الإدارة الإسبانية الوفاء بهذا الحلم إلا أن المعماريين أثثوا فضاء الحسيمة بواجهات تجمع بن المعمار الأوروبي وتأثيرات العمارة العربية الإسلامية في مبان ك" ثكنة الفرسان" وساحة فلوريدو، ومن أجمل المباني بالحسيمة مبنى "الكوليخيو الإسباني" الذي صممه مارين دي بيرناردو في هندسة تذكر الرائي بالعمارة الإشبيلية وقد صممه كمشروع لمقر إقامة الجنرال الأكبر بالريف، وكذلك متحف الحسيمة (المبنى المسمى كاسا دي إنتربنثيونيس) الذي يعود تاريخ تشييده إلى سنة 1926، والذي يتميز بواجهة من مستويين. بشكل مستطيل وزوايا مربعة مع احترام

لمبدأ التماثل حيث ينتصب برجان في زاويتي الواجهة، وقد ارتفعت فوقهما أفاريز مزدانة بالقرمود، ويؤثث طول الواجهة شريط من الزخرفة على الزليج وأعمدة أسطوانية.

5-2- طراز إميليو بلانكو إيثاكا أو الأسلوب الريفي

بعيدا عن المجال الحضري وتخطيط المدن، عرفت منطقة الحماية الإسبانية نزوات ثقافية في العمارة والتشكيل، تهدف إلى دراسة الخصوصية الريفية وإعادة إنتاجها، وكانت تجربة الضابط إيزاكا أهم هذه النزوات. كان إيميليو بلانكو إيزاكا ضابطا في فرقة المشاة في الجيش الإسباني، عمل في منطقة الريف سنة 1927 كمراقب عسكري، ومندوب للشؤون الأهلية في عدة مناطق: أيت اعمارت، إيزمورن، وأجدير، تماسينت، أربعاء تاوريرت،.. وبين سنتي 1936 و1942 رقي إلى مراقب للتراب الريفي، وأخيرا مندوبا مفوضا للشؤون الأهلية، اشتهر بطرازه المعماري المتميز وأبحاثه حول القوانين والأعراف في منطقة الريف، ولم يكن مسؤولو إدارة الحماية ينظرون بعين الرضى إلى مغامرته الإبداعية.

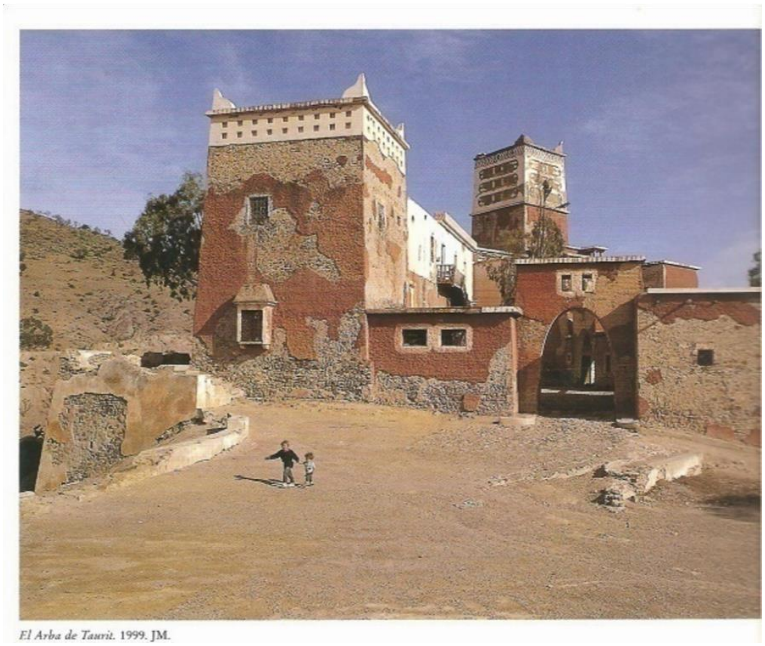

El Arba de Taurit. 1999. JM.

أربعاء تاوريرت، من أعمال بلانكو إيثاكا بالريف الأوسط

حاول أيميليو بلانكو أن يزاوج بوضوح بين الأشكال المعمارية والأدلوجات من خلال تزويد ساكنة الريف بأشكال معمارية تحاول إعطاءه هوية محددة، والمصادر التي ألهمته في قصور الأطلس الكبير وقصبات جنوب المغرب ذوات الأشكال والألوان الحمراء بأحجام مكورة وواضحة ونقوش هندسية بسيطة. وفي منظوره، يلتقي بناء الأسرة والقبيلة من الناحية الاجتماعية مع الهندسة الريفية في شكل الفضاء، ويظل من واجب المهندس الاجتهاد للوصول إلى الفضاء الريفي، ومن أجمل إنجازاته مبني أربعاء تاوريرت وبعض المباني المنفردة بالحسيمة وإيمزورن وتماسينت.

خاتمة

إذا كانت مباني الحمراء بغرناطة أو مسجد قرطبة الأعظم أو التشييدات العربية الإسلامية بالأندلس مصدر فخر المواطن الإسباني فلأنها حملت في فترة من الفترات التاريخية حمولة ثقافية شرقية في وسط غربي مختلف، ومن نافل القول بأن منطقة الريف كانت مسرحا لأحداث تاريخية مشتركة بين بلدين جارين تقربهما الجغرافيا ويباعدهما التاريخ، وكان من نتائج هذه الأحداث أن تم إنتاج فضاء عمراني ومعماري مختلف عن ما كان من قبل، وأن ظهرت للعيان معادلة مختلفة تمثلت في حلم العودة الأندلسية إلى الفضاء المغربي، وحلم خلق التقارب بن الضفتين. فلماذا لا نطرح من بين أولوياتنا الحفاظ على هذا التراث العمراني والمعماري المتميز الذي احتضنته أرض الريف خلال النصف الأول من القرن العشرين؟ ربما سيمثل بدوره مفخرة لمواطني البلدين المغرب وإسبانيا، وسيلعب دورا في التقارب.

لائحة المراجع

أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، المجلد الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص281.

– الفيكيكي، حسن. مادة "تازوطا"، معلمة المغرب، 6/2040.

Siraj (Ahmed), De Ighzar Amekrane à Akros : réflexions rétrospectives sur les sources historiques du Rif, in : Rif, Les traces de l'Histoire, Actes du colloque Patrimoine Culturel du Rif, Quelle Muséographie ? Edition C.N.D.H, 2011, p.67.

GOZALBES E., 1980: "Atlas Arqueológico del Rif", Cuadernos de la Biblioteca Española de Tetuán, 21-22, p. 26.

Antonio Bravo NIETO, Arquitectura y urbanismo espanol en el norte de Marruecos, Seveilla, Junta de Andalucia, 2000, p : 67 .

BRAVO NIETO, Antonio. "Tetuán y Larache, dos modelos de ensanche en el norte de Marruecos". En: La formación de una ciudad: Apuntes sobre el urbanismo histórico de Ceuta. VI Jornadas de historia de Ceuta. Ceuta: Instituto de Estudios Ceutíes, 2006; p. 83.

Antonio Bravo NIETO, Arquitectura y urbanismo español en el norte de Marruecos, Junta de Andalucía, Consejería de Obras Publicas, 2000, p: 112.

BRAVO NIETO, Antonio, BELLVER GARRIDO, Juan Antonio, LAOUKILI, Montaser. "Nador (1909-1956). Historia de una ciudad del Norte de Marruecos. / Nador (1909-1956). Histoire d'une ville du nord du Maroc". En: Aproximación a los edificios históricos y patrimoniales de Málaga, Tetuán, Nador, Tánger y Alhucemas / Un rapprochement entre les édifices historiques et patrimoniaux de Málaga, Tetouan, Nador, Tánger et Al Hoceima. Cooperación internacional OMAU, Ayuntamiento de Málaga, UE, 2011; p. 231.

Principe, Albderto Darias, Algunos aspectos de la labor urbana de Espana en el norte de Marruecos, in : Arquitecturas y ciudades hispanicas de los siglos XIX y XX en torno al Mediterraneo Occidental, Centro Asociado de la ciudad de Melilla, p : 327.

LAOUKILI, Montaser, El yacimiento arqueologico de Ghassassa, notas de Historia y de Arqueologia, in : Akros, Revista del Museo de Melilla, n° 4, 2005, p. 115.